الارستقراطية والديمقراطية وتأثيرهما

في المجتمع والادب والتاريخ

عند ما نستعرض مختلف الشخصيات التي عملت على تقدم الفكر وارتقاء الحضارة وكان لها شأن خطير في تطورات التاريخ واستحالات المجتمع تبهرنا قدرة الطبيعة على التنويع وافتنانها العجيب في خلق الصور المختلفة وايجاد الخصائص المتغايرة . فهي لا تخرج بدائعها كالآلة الصماء ولا تكرر انتاجها تكرير المعامل . ومن معجزها ان ابتكارها لا ينفد وتجديدها لا تهمد حركته . وهذا التنويع الدائم في حدود الدلالات والانواع من حوافز التطور التي اختلف في تعليلها العلماء وان كانوا قد اتفقوا على ان هذا التنويع من اقوى البواعث على تنازع البقاء ، واثره في ترقي الحضارة لا يُنكر

ولكننا اذا امعنا النظر حريون ان نلمح خلال هذا التجديد الدائب قوالب خاصة من الخلائق متناقضة اشد التناقض تتشابه في الجوهر والاصل وان كانت تختلف في التفاصيل والنسب . ففي كل زمان ومكان وجد في الدنيا التقديس الزاهد في الحياة والدنيوي المنهافت عليها والشهيد الذي يجود بنفسه لمصلحة شاملة وغاية عامة والانائي الذي يجعل نفسه غرض الاجيال وقطب الوجود كما وجد في الحياة الفكرية المثالي والواقعي وانصار العقل وحماة الارادة والمتفائلون والمتشائمون . ومن القوالب النفسية الهامة التي وجدت في متباين الامم ومتعاقب الاجيال واثرت تأثيراً بعيد المدى في تكوين التاريخ وبناء المجتمع الطراز الديمقراطي والطراز الارستقراطي . ولكل طراز من هذين الطرازين عالم خاص من الآداب والافكار والمشاعر تجاه الحياة والمجتمع والعلاقة المتبادلة بينهما تتكرر وتتجدد بتتابع الامم وتوالي الايام

ويمتاز الطراز الارستقراطي بفرديته المعتزة بنفسها المغالية بقيمتها وبالجرأة النادرة والقسور على العظائم والاستهانة بالكبائر واستسهال الصعاب وشدة التوق الى الكفاح والمناضلة والرغبة في اقتحام المجاهل والاتيان بالخوارق ، تحدوه الى ذلك طبيعته السليمة وفطرته القوية وحيويته الجائشة

وهو يجنح بطبيعته الى الراحة والبطالة ويتجنب العمل المنتظم والمجهود المرهق . والبطالة هي حالته الطبيعية كما كانت حالة الانسان في فجر التاريخ وباكورة الاجتماع . والحقيقة ان كثيراً من صفات الانسان الاول ابن الغابات المتأبدة والخدرات الابكار الطليق من القيود الخالي من الهموم بادية في الطراز الارستقراطي . وشخصية الارستقراطي القوية التي لا يستقر تطلعها القلق ولا يرتوي ظمؤها الى الاحاسيس تجعله قليل الصبر على احتمال مشاق العمل ثائراً على كل ما يستدعي

متين الجلد ودائم المثابرة ، متجه الميول الى الحياة العضوية لانها مناط عزماته وميدان كفاحه

ومما يزيد الارستقراطي كراهة للعمل وتفوراً منهُ ان كل حرفة او مهنة تستلزم اعمالاً خاصة ومجهوداً معيناً ولا يتوفر للانسان اجادتها الاَّ بعد طول المرانة عليها ومصابرة شدائدها وتعويد النفس مراعاة مقتضيات اي ضرب من ضروب العمل واخذها بمعالجة مشكلاته يستثير في الانسان خواطر واحساسات ملائمة لطبيعة هذا العمل ويخلق جوًّا فكريًّا مناسباً له يشوه الشخصية ويحد مدى التفكير . ومن السهل ان تتعرف العمل الذي يتعاطاه الانسان من ملامح وجهه واسلوب حديثه وطريقة ايماءاته . ولكن الطراز الارستقراطي مع عجزه عن الخضوع لمستلزمات العمل المنتظم والمجهود المتواصل يملك قوة كبيرة وكفاءة خاصة للتوجيه والزعامة وضم متناثر الصفوف . وقد ظلت هذه القوة فيهِ سليمة لم يرنق صفوها العمل ولم تفل شوكتها مطالب المهنة . وقد نبغ من صفوف الطراز الارستقراطي مشاهير الحكام وكبار القواد والزعماء وابطال المخاطرين المعروفين في التاريخ وهم مؤسسو اشهر الاسر التاريخية وصناع الدول الكبيرة

واظهر صفات الرجال من الطراز الارستقراطي القسوة البالغة والضراوة الفاتكة والانانية الصريحة والرغبة في فرض ارادتهم وتغليب آرائهم ولكن هذه الانانية الضخمة والاباء المر والخلق الوعر يكمن وراء ستار شفاف من حسن السلوك وجمال المظهر والتهذيب الذي لا يشوبه تكلف. ومما يزيدهم مهابة في الصدور واجلالاً في العيون ترفعهم عن الصغائر ومغامرتهم بالحياة في سبيل المجد والشهرة وايثارهم الموت على الهوان والعار . وهم لا تحجزهم رهبة عن الصمد للغاية المرتسمة في اذهانهم والمطلب الذي حامت عليهِ اطماعهم وقلَّ ان يخطئهم التوفيق لان الحياة في حاجة الى هذه البسالة الهوجاء التي لا يرقى اليها التردد ولا تدنو منها الوساوس

والطراز الديمقراطي عميق الاحساس جم الانسانية . وفرط الاحساس يستدعي مراقبة النفس وضعف الثقة بها وكثرة التردد والعجز عن انتهاب اللذات واقتناص الفرص . وهو بطبيعته شديد التعلق بفكرة الواجب كثير الاحترام للآداب والعرف قادر على امتلاك نفسه وقمع ميوله لا يبرم بالعمل المنتظم ولا يسأم الحيطة والمثابرة . ومن خواص الطراز الديمقراطي القدرة على التجديد والابتكار . اما الطراز الارستقراطي فهو شديد المحافظة عدو للتغيير حريص على ابقاء القديم فهو شديد الميل الى الرجعية . ومن متناقضات الحياة ان من يسمونهم الضعفاء والمرضى المسترسلين مع الاحلام والمنحطين وامثالهم من ممثلي الروح الديمقراطية هم اكبر عوامل الرقي ودواقع التقدم . ومن التواء الرأي وقصور التفكير العمل على ابادة الضعفاء مجاراة لسنن التطور وتبرعاً بمساعدة الانتخاب الطبيعي بدلاً من ان نتركهُ يسير سيره ويؤدي رسالته . ومما هو جدير بالملاحظة ان القرن التاسع عشر الذي ازدهرت فيهِ الروح الديمقراطية من احفل عصور التاريخ بالاختراعات والاستكشافات العلمية . وكل جلائل الحضارة

وبراعات الاختراع ومعجزات الصناعة انما تم على يد المرضى والضعفاء . وذلك لان كل اختراع هو ابن الضرورة والضعة وسليل الحاجة والفقر وسمتهُ الشعور بالنقص وذل الحاجة . والضرورة كما يقولون هي ام الاختراع ومن ثمَّ كان الاختراع وليد الروح الديمقراطية . وقد قضت سخرية القدر ان يكون اشد الناس مقاومة للمخترعات في اول امرها هم الذين يحسنون استثمارها عند ما تثبت التجربة وينذيع نفعها . وللارستقراطية مواهب ممتازة في استغلال الظروف وانتهاز الفرص واستدرار النفع من مجهود الغير وانك لترى ذلك واضحاً كل الوضوح في اوائل تاريخ الاسلام. فقد كان الامويون هم ارستقراطية قريش وسادة مكة فلما ظهر الاسلام خافوه على نفوذهم فقاوموه مقاومة عنيفة فلما باءوا بالخذلان وانتصر الاسلام وتوطد مركزه وقويت مرته صانعوا الظروف وداروا مع الايام حتى عنت لهم الفرصة أو عملوا هم على خلق هذه الفرصة وانتزعوا السلطة انتزاعاً بالحيلة الواسعة والدهاء البعيد القرار واستغلوا الحركة الاسلامية اشد استغلال وهي حركة ديمقراطية في صميمها

وهناك مشابهة بين الطراز الارستقراطي والطراز الاجرامي الذي ينبغ من صفوفه قطاع الطرق وقادة المناصر ورؤساء العصابات ومشاهير السفاحين . ومصدر هذه المشابهة هو ان الغرائز الحيوانية الاولى — غرائز الانسان قبل ان تصقلها الحضارة وتقلم وحشيته القوانين — لا تزال في كليهما على قديم عنفوانها وشديد عرامها . وان كان الطراز الارستقراطي عاملا بناء على حين ان الطراز الاجرامي من شر عوامل الهدم . ومن الطراز الديمقراطي يظهر النبي والبطل والزاهد لان هذا الطراز دأبه ان ينكر فرديتهُ وينبذ انانيته ويضحي بذاته

وقد استلزم وجود هذين الطرازين المختلفين نشوء نوعين من الآداب سارا متجاذبين في التاريخ وتجاورا في كل مجتمع . وهما آداب الارستقراطية وآداب الديمقراطية . فالطموح وترامي الآمال وجموح المطامع والكبرياء والاحتقار وطبيعة العدوان والقسوة والولوع ببسط النفوذ هي آداب الارستقراطية ومثلها العليا . اما الديمقراطية فمن شمائلها التواضع والقناعة والحلم والاعتدال وحب العدالة والشفقة والميل الى التضحية ونكران الذات

وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب فمن الناس من تغلب عليه الآداب الارستقراطية ومنهم من للآداب الديمقراطية في نفسه النصيب الاوفر ومنهم من يلتقي في نفسه الضدان . وفي بعض الازمنة تنتصر آداب الارستقراطية وفي ازمنة اخرى تسود آداب الديمقراطية . ومن الشعوب شعوب آداب الارستقراطية اشد تأصلاً في نفسها ومنها شعوب آداب الديمقراطية ابين في اخلاقها. وقد كان نيتشه في القرن التاسع عشر اقوى المدافعين عن آداب الارستقراطية عارضة وأعظمهم شاعرية وفي سبيل ذلك حمل على المسيحية حملته الشعواء واستنزل عليها صواعق غضبه . كما كان طولستوي اعف المدافعين عن آداب الديمقراطية

مقصداً وأعمقهم احساساً وأصحهم ادراكاً لجمال الديانة المسيحية وسمو تعاليمها

وكما أثر هذان الطرازان في الآداب كذلك احدثا تأثيراً بعيد المدى في عالم السياسة وأنظمة الحكم إذ انبعثت منهما نظريتان طال بينهما الصراع . وهما نظرية عدم المساواة في الحكم وهي النظرية الارستقراطية . ونظرية المساواة وهي النظرية الديمقراطية

وسمة التفوق والبسالة البادية في الطراز الارستقراطي هي التي قام عليها احترام طبقات الفلاحين والفقراء لهم واعتقادهم انهم سادتهم بلا منازع وانهم يختلفون عنهم دماً . وهذه العقيدة مكنت الارستقراطية من تقرير سلطتها والاحتفاظ بمكانتها مدة طويلة . ومن ثم نشأت فكرة السلطة المستبدة من جهة والطاعة العمياء من جهة اخرى ورسخ في النفوس الاعتقاد الذي لاحظه توكفيل وهو اعتبار ان الذين يستبدون بنا لابد ان يكونوا افضل منا. وقد وجه عظماء الانبياء مثل بوذا والمسيح ومحمد اكبر نقد للنظرية الارستقراطية وأدركوا بخواطرهم الملهمة ونظراتهم النافذة ووقوفهم على اسرار القلوب وخفايا النفوس ان هذا الاختلاف والتفاوت مقصور على النسب والمقادير وانه لا يمس الجوهر فهو يتضاءل ويفنى ازاء الوحدة الروحية التي تضم الجميع

وعلى الاعتراف بالعجز من جانب الديمقراطية وحرص الارستقراطية على السيطرة والاستعلاء قامت السلطة الارستقراطية وتوطدت واستغلظ امرها وثقلت على النفوس وطأتها وكبلت العقل واسرفت في الظلم والتعسف ومسخت في النفوس الحاسة الاخلاقية لأن احتقار فكرة المساواة يقلب الاحترام ذلة ومسكنة ويحيل الاجلال والتقديس عبودية وضيعة ويغري النبلاء بالافراط في الكبرياء والطغيان والاسترسال مع جامح الشهوة وساقط النزوات ويمهد السبيل لاغتاء فكرة ان الشعب وسيلة وليس غاية وانه سلم لمآرب الارستقراطي وآلة للتسخير

وأشد ما يؤخذ على الارستقراطية حرصها على استبقاء جهل الجماهير وحرمان الشعب من نور الفكر والعرفان وقد قاومت الارستقراطية في اغلب العصور تسامي الشعب الفكري ونزوعه الروحي وتطلعه الى الحقيقة . ففي اميركا كان من المحرم تعليم العبيد معرفة القراءة والكتابة . وكثيراً ما حاولت الارستقراطية ان توقف نزوع البشر وطموحهم وتهبط بالروح الانسانية . والحقيقة انه لا ينتظر من الارستقراطية ان تعمل على تهذيب مدارك الشعب وشحذ ذكائه ورياضة أخلاقه ورفع مستواه الفكري لانها لم تقم في الاصل على التفوق الفكري وانما قامت على القوة العضوية والغرائز الارضية . وأحفاد الارستقراطي وذراريه الذين يؤثر عنهم المجد والشهرة انما يتفوقون على سائر الناس بالقوة العضوية لنشأتهم في بيئة اكثر ملاءمة للصحة ولتيسر الغذاء الصالح . وبالخلق المتين لان حرصهم على مكانة الاسرة والمحافظة على تقاليدها يشعرهم باتصال حياتهم بحياة اجدادهم السالفين وأبنائهم القادمين.

وهذا الشعور يجعلهم يخشون العار ويحسون بدوافع المجد ويقدرون المسؤولية الملقاة على عواتقهم . ولكن الذكاء والقدرة على التفكير لا تتطلب سمو المنشأ ونبالة الاصل والعبقرية لا تورث . والارستقراطية تقدر قوة الفكر وتخشاها ، لانها لا تملك السيطرة عليها وهذا الخوف من سطوة الفكر انشأ للارستقراطية الكثير من المصاعب وصيرها غير قابلة لمستحدث الافكار قليلة الفطنة لنوازع الروح لا تعلم متى تضع حداً لاستبدادها وهذا هو سر الثورات الخطيرة التي سجلها التاريخ ومن اشهرها الثورة الفرنسية

ولا نزاع في ان الارستقراطية تقدم للعالم نماذج جذابة من السمو والبهاء ونبالة الاخلاق والشجاعة وهي خير من يضع الاساس لابتناء مجد الامم ولكنها سرعان ما تصبح حجر عثرة في سبيل التقدم وحرية الفكر

والنظام الديمقراطي اكثر ملاءمة لحياة الفكر وحفز الهمة . لان الحياة بين النظراء توسع الروح وتستحث المواهب وترد على الانسان ثقته بنفسه . أما الحياة في الانظمة الارستقراطية فانها تغري النفس بالتراجع والانكماش وتوهن الملكات وتعطل المواهب وتحقر الشعور بالكرامة البشرية . ووقوف الانسان في متكاثف الظلال ينمو في عضده ويحلل من بأسه ولا خلاف في ان هناك افراداً ممتازين يستطيعون اكتساح هذه العقبات ولكن المسألة ليست مسألة افراد معدودين وانما مسألة العدد الاكبر من البشرية الذين لم يتفوقوا في المواهب والهمم والذين يتطلبون سماحة الظروف ومساعدة الاقدار . فان امثال هؤلاء عند ما يبصرون امامهم بناء مشمخراً وعظمة باسقة يرتد طرفهم حسيراً وتضؤل نفوسهم وتتثلم عزيمتهم وتستولي عليهم الرهبة واليأس . وقد لاحظ توكفيل ان جمهرة الشعب في الامم الارستقراطية اكثر تخلفاً في مدارج الحضارة من غيرهم في الامم الاخرى والسر في ذلك شعورهم الشديد بالتفاوت بينهم وبين الاشراف ويأسهم من ادراك العلى وتنسم المجد

ويرى المفكر في سير التاريخ ان هذين الطرازين لازمان لاطراد الحضارة ورقي المجتمع . لان بقاء الحضارة يقوم على عاملين لامفر من المحافظة على التوازن بينهما . وهما العامل الانساني الذي تكفل به الديمقراطية والعامل الحيواني الذي تقوم به الارستقراطية . وهذا الصراع الطويل المضني بين فكرة المساواة وفكرة عدم المساواة هو الذي يميط عن المجتمع من الحين إلى الحين وخامة الركود وغبار الجمود ويمر القلوب بالامل ويدفعها الى الاقدام والعمل

القاهرة علي ادهم

اهم المصادر التي رجعت اليها عند كتابة هذا المقال : —

(1) On the Tracks of Life. By Sera.
(2) The Conventional Lies of Our Civilization. By M. Nordau.
(3) Civilization & Progress. By Crozier.